

# إعمال السياق واعتباره في الدرس القرآني

و. محمد السيسي  
كلية الآداب - كناس

إن أهم مقاصد قراءة الوحي فهم المعنى واستنباط الحكم قصد الامتثال، وما لم تبين دلالة الألفاظ والتراكيب التي تنتظم نصوص الوحي فلن يفهم قصد الشارع ولا أحكامه، من هنا كانت الدلالة - لا فهم المعنى مطلقا - هي مناط قصد الخطاب الشرعي بأبعاده الكلية: العقدية والأخلاقية والتشريعية، وهذه المحورية التي للدلالة تولّى شأنها الأصوليون بالتقعيد والتأصيل، وأعملها المفسرون في البيان والتفسير، وجمع بين الأمرين الفقهاء بالمعنى القرآني للفقهاء<sup>1</sup>.

وإن من أهم القراءات وأدوات الكشف عن المعاني، وبناء الدلالات للفهم والاستنباط ما اصطلاح عليه في علم أصول الفقه: "بقرينة السياق" وبنائها بناء معرفيا ومنهجيا، صائغا توظيفه في عملية البيان والتفسير اعتمادا على ما قررته أصول الفقه في طبيعة السياق، وعلى طبيعة خطاب الوحي الذي وظف فيه السياق.

أ. السياق عند الأصوليين: طبيعة السياق عند الأصوليين هي الأمر الذي يمكن أن يؤثر في معنى خطاب معين مما له علاقة بالخطاب ذاته<sup>2</sup>، أي الإطار العام الذي تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية وتترابط في بيئة لغوية وتداولية تقدم لمتلقي الخطاب أو قارئه ما يمكنه من إدراك عمق الدلالة وفهم قصد الخطاب، على معهود اللغة التي بني بها الخطاب.

فهذا الشافعي في الرسالة وهو يؤسس لقواعد فهم الوحي من طبيعة لغته يقول: "فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها

اتساع لسانها، وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر، وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص.. وعاما ظاهرا يراد به الخاص وظاهرا يعرف من سياقه أنه يراد به غير ظاهره، فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره...، وتبتدئ الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره، وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله...<sup>3</sup>.

مبيننا لك أن نسق تركيب الخطاب لا مناص من اعتباره سباقا ولحاقا، وأن من أصناف الخطاب ما لا يبين معناه إلا بالسياق<sup>4</sup> مسجلا فيما نحن بصدد براءة الاختراع في مجال آليات قراءة الخطاب، والشرعي منه على الخصوص، ثم توسع فيه الدرس الأصولي عندما أدخل إلى دائرة موضوعه بحثي المعاني والبيان من علم البلاغة<sup>5</sup> وليستوي على سوقه معناه الوظيفي على يد شيخ الصناعة الأصولية وإمام الدراسات الدلالية أبي إسحاق الشاطبي، بالتنصيص على ضابطية السياق قائلا: "فلا بد من ضابط يعول عليه في مأخذ الفهم، والقول في ذلك أن المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل...، فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم، الالتفات إلى أول الكلام وآخره، بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق ببعض، لأنها قضية واحدة، نازلة في شيء واحد، فلا محيص للمفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإن ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه، فلا يتوصل به إلى مراده...<sup>6</sup> ذلك أن مقاصد الكلام مدارها "على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطب أو المخاطب أو الجميع..."<sup>7</sup>، لإدراك قصد الخطاب من خلال السياق الذي تبوأ معناه الاصطلاحي من معناه المعجمي الدال على معنى: المشي وراء الشيء على سبيل الرعي والحفظ من الخلف أخذنا من "سياق المرأة" أي صداقتها.

ذلك أن العرب كانوا -في الغالب- يجعلون صداق المرأة إبلا تساق مهرا إليها<sup>8</sup> بالمشي وراءها حفظا لها من أي سوء يتوقع.

ب. طبيعة خطاب الوحي: إن القرآن الكريم باعتباره معطى إلهيا من حيث الموضوع

والقصد، هو في حد ذاته جاء في سياق معين، سياق يجمع بين حاجة البشرية زمنيا إلى ظهور الرسالة الخاتمة، وبين معهود إرسال الرسل في تاريخ الأمم والأقوام، كل ذلك في سياق بناء المجتمع النموذج -مجتمع الصحابة- بسياق خاص في منهج التزليل بالنظر إلى كيفية نزول الرسائل السماوية قبل ﴿وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا﴾ [سورة الإسراء/الآية: 106]. وإن في طبيعة نزول القرآن منجما لأكبر العبر فيما نحن بصددده، فمع أن كل نجم منه رهين بتزول حادث أو سبب عام أو خاص، أو وجود ملابسة أو ظرف مؤطر بحال من أحوال مساق الرسالة، فإنه من جهة أخرى قد أعد لكل نجم ساعة نزوله سياجا خاصا يأوي إليه سابقا أو لاحقا، وحدد له مكان معين داخل هذا السياج، وعند عرض أي سورة من سور القرآن يظهر لك مدى وحدة التنظيم المعنوي في الآية الواحدة وفي علاقتها بما قبلها وما بعدها وفي السورة الواحدة بالنظر إلى علاقتها بما قبل وما بعد، بل وفي القرآن كله بترتيبه التعبدي... فهو وإن تفرقت آياته وتباين موقعها في ترتيب المصحف وأزمة النزول وأمكنتها فهو مترابط في سياق منظوم، سورا وموضوعات ومعان ومقاصد، تولت بيانها مصنفات إعجاز القرآن في مباحث النظم. وعلم التناسب في مباحث علوم القرآن بيانا لرعاية نظم القرآن وحق السياق كما يقول الزركشي<sup>9</sup>.

ولأن أسلوب القرآن مخالف لجميع أساليب الكلام العربي وطريقته في النظم المعنوي والموضوعي -وإن كان نصا لغويا من جنس لسان العرب- فإن عملية البيان ومنهج توظيف آليات تحديد الدلالة وقواعد الاستدلال، يجب أن تراعي فيها طبيعة الوحي وخصوصياته، فالوحي إلهي وترتيبه إلهي تنزيلا على حسب الوقائع، وترتبا وتأصيلا وفق الحكمة الإلهية<sup>10</sup>.

ولذلك فإن فهم القرآن وبيانه محتاج إلى السياق بنوعيه: السياق اللغوي الداخلي، والسياق المقامي الخارجي: الحال والزمان والمكان والمتكلم والمخاطب، وهذه الحاجة كما يقول الفاضل بن عاشور ليست أصلية وإنما هي حاجة عارضة نشأت لسببين:

**الأول:** هو أن القرآن نزل منجما على أجزاء مع فواصل زمنية متراخية على الترتيب

المعروف، منظورا فيه إلى مناسبة الظروف والوقائع، مناسبة ترجع إلى ركن من أركان السياق الذي هو ركن مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

الثاني: كون الترتيب التعبدي منظور فيه إلى تسلسل المعاني وتناسب أجزاء الكلام بعضها مع بعض، ثم إن دلالات ألفاظه وتراكيبها الواضحة تتبعها دلالات أخرى محل إجمال أو محل إهام، على الطريقة المعهودة في لغة العرب<sup>11</sup>.

تلتزم طالب التفسير بالتمسك بنظم الكلام وسياقه من خلال علاقات الألفاظ ببعضها، والأدوات المستعملة للربط بينها وما يترتب على ذلك من دلالات جزئية أو كلية<sup>12</sup> وهذا بمجموعه ما يكون الركن الثاني في السياق وهو السياق اللغوي<sup>13</sup>.

ويربطه بالركن الأول-سياق الحال-، الجامع للأحداث والظروف الزمانية والمكانية والمتكلم والمخاطب، والملابسات التي صاحبت تزلزلات القرآن، تقترب أكثر من السياسة الرشيدة والمنهج الأسلم لدراسة النسق القرآني بما يحقق حاجة العصر إلى فهم وإفهام واهتداء، يتناسب وقيادة الحياة البشرية تحت إشراف القرآن الكريم.

### الإعمال والاعتبار

بالنظر إلى الصورة العامة التي يتخذها مفهوم السياق وتوظيفه في التفسير والبيان يمكن اعتبار تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير (غريب القرآن)، لفظا أو معنى شكلا من أشكال إعمال السياق واعتباره منذ نشأة التفسير، لأن النظر في ذلك يتم من خلال آيات أخرى أو ألفاظ أخرى في سياق الآيات بمراعاة استعمال العرب للألفاظ ومدلولاتها في السياق<sup>14</sup>؛ ولعل منهج التفسير الموضوعي ومنهج الدراسة المصطلحية من المناهج الرائدة في توظيف السياق في الدرس القرآني الحديث. وإن من أشهر الأمثلة في ذلك تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم للظلم فيما أخرجه البخاري في كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، لما نزلت ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [سورة الانعام/الآية: 83] قلنا يا رسول الله، أي أن لا يظلم نفسه، قال: ليس كما تقولون ﴿لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان/الآية: 12] حيث ورد الظلم في سياق

حديث القرآن عن الإيمان.

والشافعي في الرسالة لما قرر قاعدة إعمال السياق في البيان لما يحتاج إلى بيان "باب الصنف الذي يبين سياقه معناه" مثل بقول الله تعالى: ﴿وَسَلِّمُوا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَاعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَوْنَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [سورة الاعراف/الآية: 163] قال في بيان المسؤول في الآية... "فلما قال: "إذ يعدون في السبت" دل على أنه إنما أراد أهل القرية لأن القرية لا تكون عادية ولا فاسقة بالعدوان في السبت ولا غيره وأنه إنما أراد بالعدوان أهل القرية الذين بلاهم بما كانوا يفسقون"<sup>15</sup>.

وإن قارئ تفسير ابن جرير (جامع البيان) كنموذج للتفسير القديمة، أو تفسير المنار وتفسير الظلال كنموذج للتفسير الحديثة يجد من هذا الضرب الكثير، وفي تفسير ابن كثير لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرٌ نَفْسِي لِنَفْسِي أَنْ مَارَءٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة يوسف/الآية: 53] أن القائل هو امرأة العزيز وليس من قول يوسف<sup>16</sup> مستدلا بالسياق قائلا: "لأن السياق يفيد أن كلام يوسف قد انقطع، وبدأ كلام امرأة العزيز في جمل متصلة أمام الملك، ولم يكن يوسف حاضرا معها في ذلك الوقت، ولكنه استدعي فيما بعد... وهذا القول هو الأشهر، والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام"<sup>17</sup>.

وللقرآن الكريم عادات سياقية في قمة البيان كالرد والتعقيب عند اقتضاء السياق ذلك. فإذا انعدم المقتضي سكت مثل قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [سورة الأنعام/الآية: 137] رد عليهم سبحانه بذكر أن ذلك زعم، وعقب على قولهم بقوله "ساء ما يحكمون" حيث اقتضى سياق الحال الرد والتعقيب إبطالا وتكديبا، فإذا لم يقتض السياق ذلك سكت القرآن تأسيسا أو تصديقا: كاعتراف الكفار بذنوبهم يوم القيام على لسان القرآن ﴿قَالُوا لِمَ نَكُ مِنَ الْمَصْلُومِينَ وَلِمَ نَكُ نَهْمُ الْمُسْكِينِ﴾ [سورة المدثر/الآيات: 42-43] والسياق دال على صحة ما اعترفوا به، إذن فلا إبطال ولا تصديق اكتفاء بالسياق.

ولأهمية السياق في البيان وإظهار القصد الشرعي وأحكامه الكلية المستوعبة للأبعاد الإنسانية الإيمانية والأخلاقية والتشريعية، وللأحوال والأزمنة والأمكنة، عد علماء علوم القرآن في مبحث قواعد التفسير وأدواته "إعمال السياق ومراعاته" في فهم القرآن الكريم المنهج الأمثل في التفسير، مما يقدمه للمفسر من ضوابط وقرائن حاسمة في بيان القصد من الكلام وغاية المتكلم من الخطاب<sup>18</sup>.

تحت مجموعة من الضوابط المؤطرة لتوظيف قرينة السياق، مستقاة من خصوصية القرآن وطرائق العرب في تداول الكلام ومعاني الألفاظ عصر التزويل في إطارها السياقي المكاني والزمني أو الموضوعي أو المقاصدي أو التاريخي إن أردنا دراسة الخطاب القرآني بمنهج سياقي متكامل يبتغي منه الإسهام في حل الإشكالات القائمة وإنضاج فقه إسلامي معاصر يسائر ركب الحياة في تجلياتها العقدية والأخلاقية والتشريعية.

1. ألقت النظر هنا إلى قضية أحسبها قضية العصر، تلك هي الدعوة إلى إعادة معنى الفقه إلى دلالاته القرآنية واللغوية التي تعني فهم غرض المتكلم ومن كلامه، وقد أطلقت في صدر الإسلام على فهم الأحكام الشرعية عامة اعتقادية كانت أو أخلاقية أو عملية، لا بمعنى علم المسائل الفرعية وقواعدها-إذ هذا إلغاء لمعظم خطاب الشرع.
2. انظر معاني الآثار للطحاوي: 49/1.
3. الرسالة، 52.
4. نفسه، 62.
5. انظر أصول الشاشي، 85 فما بعدها.
6. الموافقات، 309/3.
7. نفس المصدر، 258/3.
8. انظر معجم مقاييس اللغة واللسان مادة: سوق.
9. انظر الإلتقان للسيوطي، 108/2.
10. انظر البرهان في علوم القرآن، 25/1، و172/2.
11. انظر التفسير ورجاله، 10-13 بتصرف.
12. انظر البرهان للزركشي: 272/2.
13. منهج السياق في فهم القرآن الكريم، 30.
14. انظر البرهان للزركشي، 172/2.
15. الرسالة، 62.
16. مخالفاً بذلك ما ذهب إليه ابن كثير من أنه يوسف اعتماداً على الروايات، انظر جامع البيان، ص: 3.
17. تفسير ابن كثير 482/2، ويعني بقوله استدعي فيما بعد قول القرآن بعد هذا الموقف.
18. انظر البرهان للزركشي، 175/2.

